الفصل الأول
فتح العرب الأندلس

وصلت الفتوح العربيـة فى شمال أفريقيا إلى ذروتهـا تحت قيادة موسى ابن نصيـر فى عام ٧٠٩م، فختـمت المرحلة الأفريقيـة، ومن ثم بدأ الإعداد للمرحلة التالية.

كانـت إسبـانيا فى ذلك الحين، أى إلى الفـتح العربى دولـة مسـيحـية اسمـيًا، فـقد كـانت آخر إقليم فى نطـاق الإمبراطوريـة الرومانيـة متمـسكة بالوثنية، ويبدو أنه تحت حكم القوط، لم يبذل جـهد يذكر لتحويل أهلها إلى النصرانية.. وكان سكانها قد تحـملوا الكثير من العسف وأقسى ألوان الظلم، وعاشوا تحت ظل العـبودية والإقطاع والفقر. ولذلك كان من اليسـير عليهم، فى تلك الظروف التعـيسة، أن يتلقـوا دعوة الإسلام، ويرحـبوا ترحيبًـا حارًا بالقادمين الجدد، كمـا فعل أهل مصر البيزنطية حينمـا استقبلوا المسلمين تحت قيادة عمرو بن العاص.

كان القـوط يحكمون إسبـانيا منذ عـام ٤١٨م حتى جاءها العـرب عام ٧١١م. وكان مـقر بلاط ملوكهم فى تولز، أما قـاعدتهم فى إسبـانيا فكانت طليطلة. ويمكن القـول أنه حـتى القرن السـادس، لم يكن حكم القـوط فى إسبانيـا قد دعم تمامًا. وكان يتولى الملك العرش بطريق الانتـخاب. وبعد أن استقـرت الكاثوليكية فى البلاد تقاسم الحكم الملوك ورجـال الكهنوت على ما يبدو. وكان اليهود فيهـا لا يعاملون بالحسنى بالرغم من أنهم كانوا من دعائم

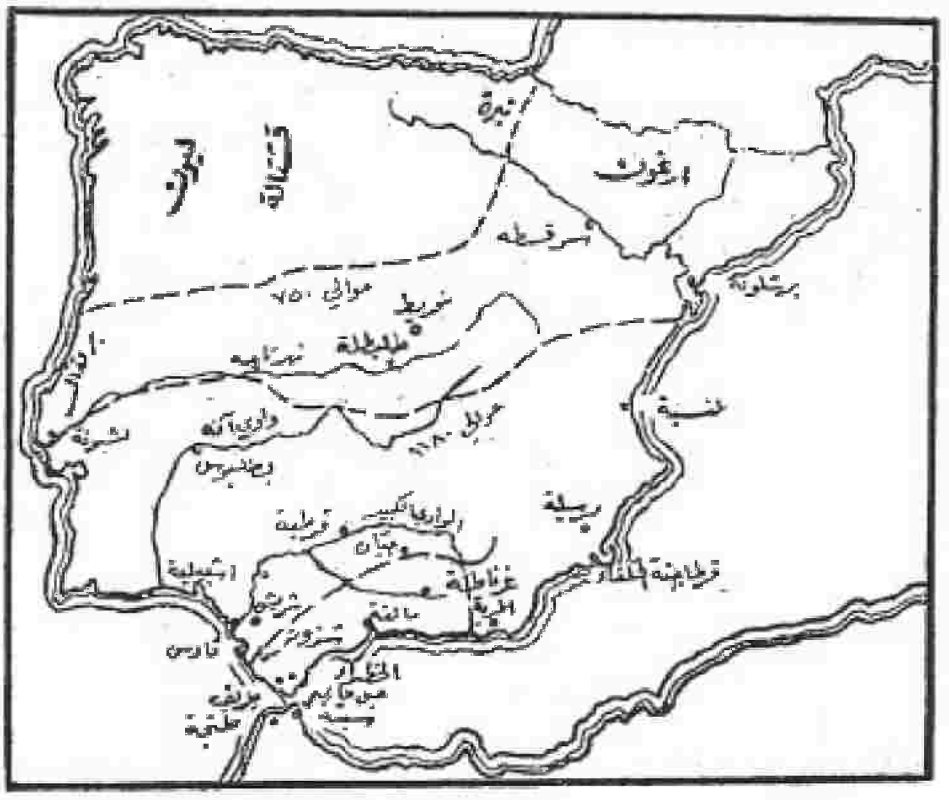

مراحل الفتح العربى فى الأندلس

الثروة والازدهار، ولذلك ساعدوا العرب على فتح البلاد وحكمها بعد ما أدركوا عدلهم وسماحة دينهم.

وحانت الفرصة فى عام ٧٠٩م، حينما اتصل ابن أحد ملوك القوط فى إسبانيا بالعرب وعرض عليهم مساعدته، إذا أعادوا العرش لأبيه من مغتصبه روذريق. وقام الكونت يوليان الرومى حاكم طنجة بالوساطة بين العرب والأمير القوطى. وبعد أن اعترف لهم بالولاء عينوه حاكمًا على سبتة.

وصلت بعثة يوليان إلى طارق بن زياد حاكم طنجة المسلم، وبعد أن تحدث مع المبعوثين، أرسلهم إلى رئيسه موسى بن نصير فى القيروان. وسرعان ما أذن له الخليفة الوليد بن عبد الملك بإعداد حملة عسكرية لفتح إسبانيا. . فتم تجهيزها من العرب والبربر.

وفى عام ٧١٠م خفت حملة استكشافية مؤلفة من البربر لريادة المنطقة التى سوف تنزل فيها الحملة، وللتعرف على أحوال مسالكها وطبيعة بلادها. والمعروف أن هذه الطليعة كانت بقيادة طريف. وفى العام التالى أى فى ٧١١م، كان القائد طارق وبصحبته يوليان الرومى قد نزلا إلى البر الإسبانى عند جبل طارق، ثم اتجه الجيش من الجنوب إلى الشمال فى خط مستقيم تقريبًا حتى استولى على طليطلة (جنوب غرب مدريد) فى سبتمبر ٧١١م، وبعد طليطلة استمر طارق فى مسيره فى اتجاه شمالى شرقى حتى بلغ ألكالادانيارس (قلعة عبد السلام)، وهناك أتاه أمر من رئيسه موسى بن نصير بأن يعود إلى طليطلة، وينتظره فيها.

خف موسى من الجنوب إلى أشبيلية، فاستولى على باجة ويابرة، ثم على ماردة بعد قتال وحصار طويلين. وكان لذريق قد نجا من معركة وادى لكة، ولجأ إلى حصون قرب ماردة. وهناك تقدم لقتال موسى، فهزم وقتل. ومن ماردة تقدم موسى، فاحتل طلبيرة (تالافيرا دى لارينا) جنوبى غربى طليطلة. وفى ذلك المكان لقيه طارق وأسلم له القيادة. وفى ذلك الحين أعلن موسى أن الحاكم الشرعى لإسبانيا هو خليفة المسلمين فى دمشق. ثم سارا معا، ففتحا سرقسطة، واتجها شمالاً بغرب مع نهر أبرو، ففتحا قلهرة، وبنبلونة، ثم أماية - فاستدرجا، ثم لك (لوجو)، ثم أبيض (أوفييدو)، ثم

العرب فى حصار قرطبة يتسلقون جدرانها ٧١٢ م

خيـخون، فأتما بهذا فـتح إسبانيـا. وتركا حاميـة قرب خيخـون، وعادا إلى طليطلة، ورجعا منها بأمر من الخليفة الأموى إلى أفريقيا، ثم دعيا للمثول بين يديه فى دمشق (٧١٤).

تولى قيادة الجيش بعدهما عبد العزيز بن موسى (الذى أصبح واليًا على الأندلس نيابة عن أبيه). فأتم ما بقى من شرق إسبـانيا وفى غربها، فاستولى على مالقا وقطاع البيـرة - غرناطة اليهود، ووقعت فى قبضتـه لبلة (نيبلا)، ويابرة (ايفورا)، وشنترين (سانتا ريم) فى البرتغال.

* * *

هذه مرحلة الانطلاق الأول فى موجة الفتح العربى للأندلس. لم تستغرق سوى أربع سنوات وعدة أشهر (٧١١ - ٧١٥)، وصل العرب فيها إلى جبال البرانس الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا. وقد استعاد الإسبان إقليمهم هذا الذى احتله العرب فى سنوات قلائل - استعادوه فى ثمانية قرون! لقد كان هذا الفتح معجزة من المعجزات.

وعلى أى حال، نقول إنه فى أعقاب فترة الفتح، جاءت فترة أخرى امتدت قرابة أربعين سنة (٧١٥ - ٧٥٥) كان الأندلس فى خلالها ولاية تابعة لدمشق مركز الخلاف الأموية. ومع ذلك فقد انحسر ملك العرب خلاله قليلاً.

ثم أقبل إلى الأندلس (٧٥٥) عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)، وأنشأ إمارة قرطبة عام ٧٥٦، بعد رحلة شاقة جاب فى خلالها أقطار الشمال الأفريقى حتى وصل إلى سبتة. ومنها أوفد مساعده بدر ليكشف عن أحوال الأندلس وليرى إذا كان سيلقى التأييد من الزعماء العرب أم أنهم سيصدونه.

ومن حسن الطالع أن مهمة بدر كللت بالنجاح، فأسرع بالاتصال بالأمير عبد الرحمن للقدوم إلى الوطن الجديد. وبعد أيام رست سفينة عند مالقة حيث كان بعض الزعماء فى استقباله. وفى العام التالى (٧٥٦) حصل على ولاء معظم القادة من العرب والبربر.

هكذا قدر بعد مرور ست سنوات على سقوط الخلافة الأموية فى دمشق، أن نهض أحد أفراد الأسرة الأموية نفسها - بعد أن قضى العباسيون عليها - فشيد صرح ملك جديد دام حوالى ٢٥٠ سنة كانت قاعدته فى قرطبة ثم أشبيلية فغرناطة.

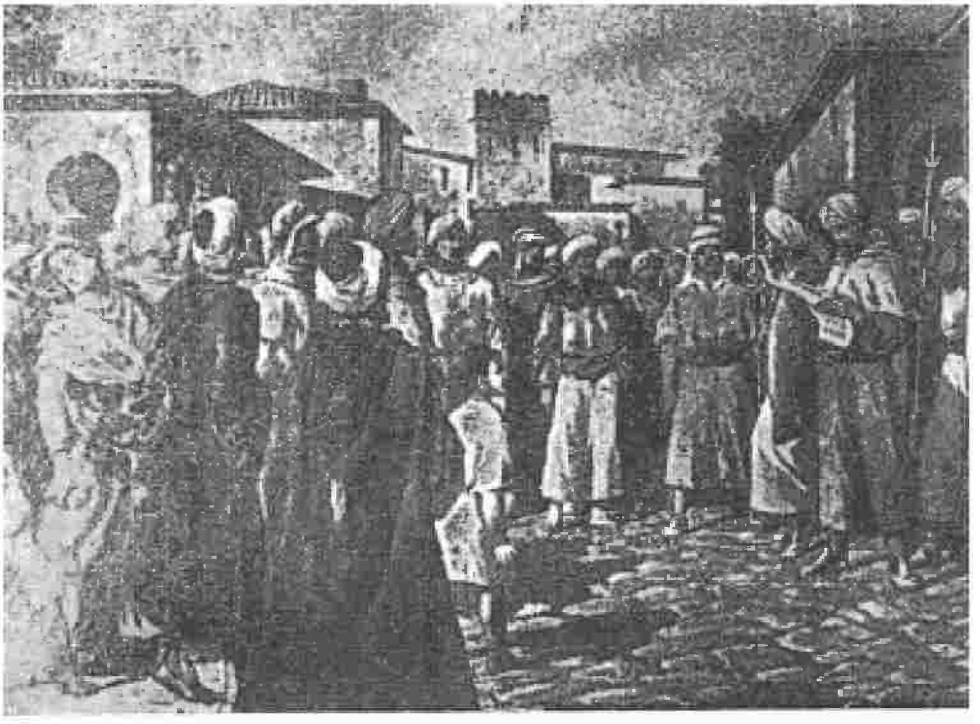

تسليم طليطلة لعبد الرحمن الثانى عام ٨٣٨ م

لم يتخذ عبد الرحمن (٧٥٥ - ٧٨٨) لنفسه لقب الخلافة، بل إنه اكتفى بلقب السلطان أو الأمير. أما لقب الخليفة، فقد اتخذه عبد الرحمن الثالث بعد مرور مائتى سنة تقريبًا على وصول سميه الأول. ونهض بعد عبد الرحمن الأول سبعة أمراء يعرف عنهم بأنهم خيرة من عرف العرب والمسلمون من حكام - كفاية وعدلاً وحزمًا، كان منهم هشام بن عبد الرحمن (٧٨٨ - ٧٩٦)، فالحكم بن هشام (٧٩٦ - ٨٢١)، فمحمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ - ٨٨٦)، والمنذر بن محمد (٨٨٦ - ٨٨٨)، وعبد الله بن محمد (٨٨٨ - ٩١٢)، ثم تولى عبد الرحمن الثالث، المعروف بالناصر، ويعتبر أعظم الحكام الذين عرفتهم إسبانيا المسلمة. وأصبحت قرطبة فى أيامه درة العالم وكعبة

الحضـارة. وكان عبد الرحـمن الناصر أول من اتخذ لقب «الخليـفة» (٩٢٩م) وتسمى بـ «الناصـر لدين الله». ومنذ ذلك الحين أصبح فى العـالم الإسلامى ثلاث خلافـات: العباسـية فى بغداد، والفـاطمية فى القـاهرة، والأموية فى قرطبة.

ولما توفى عبد الرحمن (٩٦١م)، تولى الحـكم من بعده الحكم بن عبد الرحـمن المعروف بالمسـتنصـر (٩٦١ - ٩٧٦)، ثم هشام بن الحكم المعـروف بالمؤيد (٩٧٦ - ١٠٠٨) ولما كـان غلاماً صـغيراً حـينما تولى الأمـر، سيطر واحد من رجـال الدولة وهو محمـد بن أبى عامر عـلى الحكم، واستطاع أن يجعل من نفسه الحاكم الفعلى، وتلـقب بالمنصور. وقد تمكن من توسيع رقعة الإسلام فى الأندلس[1] فتخـطت نهر دويرة، وارتفعت إلى شمـاله عند نهر المينو، وضمت جزءًا كبيراً من إمارة نافار (نبرة).

ولما مات المنصـور خلفه اثنان من أبنائه، ثم أخـوه عبـد الرحمن. وفى أيام هذا الأخير ثار الأندلسيون وبدأت فتنة أهلية، وتعاقب على عرش الخلافة فى أثنائها عدد من الخلفاء من بنى أمية أولاً، ثم من أسرة تعرف ببنى حمود، ثم استردها بنو أمية، حتى إذا تولى آخر بـنى أمية الأندلسيين، ويسمى هشاما المقعد، كان أهل قرطـبة قد سئموا الفوضى، فاجتـمع رؤساؤها وقرروا إلغاء الخلافـة الأموية سنة ١٠٣١م. ومن ثم تقـسمت البلاد إلى إمـارات مستـبدة تعـادى كل منهـا الأخر، وبدأ فـى تاريخ الأندلس مـا يعرف بعـصـر ملوك الطوائف.

(١) د. مؤنس: رحلة إلى الأندلس، ص ٢٥ - ٢٦.

ملوك الطوائف

فى أثناء ضعف خلافة قرطبة، انتهز ملوك النصارى فى الشمال هذه الفرصة، فوسع كل منهم سيادته على حساب المسلمين. فانحدرت حدود الأندلس إلى نهر تاجة، فيما عدا الناحية الشرقية، إذ ظلت حدود الأندلس، هناك فى حوض نهر إبرو، أى أن الأندلس لم يعد يشمل إلا نصف شبه الجزيرة.

ففى عام ١٠٨٥ استولى ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون على أكبر ممالك الطوائف، وهى طليطلة. ومنذ ذلك التاريخ لم يعد الأندلس يشمل إلا ثلث شبه الجزيرة فقط!

أدرك الأندلسيون الخطر فاستنجدوا بأهل المغرب، وكانت دولة المرابطين قد نهضت فى شمال أفريقيا، وسرعان ما أقبل رئيسها يوسف بن تاشفين لنجدة ملوك الطوائف المنقسمين على بعضهم، فهزم الملك ألفونسو السادس فى معركة الزلاقة (٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م)، وكان من معارك المرابطين الظافرة فى الأندلس، معركة أقليش (٣٠ مايو ١١٠٨م)، وافراغة (يونيو ١١٤٣م). وأبطال تلك المعارك يوسف بن تاشفين فى الزلاقة، وتميم ابنه فى أقليش، ثم يحيى بن غانية فى افراغة!

المرابطون:

وكان المرابطون قد نشأوا فى صنهاجة ثم قامت دولتهم أولاً بالمغرب وبرز فيها يوسف بن تاشفين مؤسس مدينة مراكش. ولما استنجد به ملوك الطوائف ووقف على ضعفهم ألحق بلادهم بمملكته وعاد إلى فاس واتخذها

عاصمة ملكه. ولما مات (١١٠٦م) خلف دولة امتدت من السنغال إلى نهر الأيبر، وفن الأطلسى إلى الجزائر.

الموحدون:

وقعت غرناطة تحت حكم المرابطين بعد إزالتهم أسرة الزيريين، فنصب هؤلاء من قبلهم الحكام من عام ٤٨٣هـ = ١٠٩٠م إلى ٥٥١هـ = ١١٦٦م حينما سقطت فى يد الموحدين. وكان أول وال مرابطى فى غرناطة اسمه أبو محمد عبد العزيز، وجاء من بعده الأمير يحيى بن وسينو.

وعلى مر الأيام ضعف أمر المرابطين، وقام عليهم الموحدون فى المغرب، فثار نفر من الأندلسيين، وعادت الفتنة، وفى أثنائها استولى ملك أراغون على الثغر الأعلى، وقاعدته سرقسطة سنة ١١١٨، بهذا أصبح الأندلس لا يشمل سوى ربع شبه الجزيرة!

وفى عام ١١٥٠ عبر الموحدون إلى الأندلس ليعملوا على الحفاظ على ما بقى منه، ونجحوا فترة قصيرة، فانتصروا على المسيحيين فى معركة الأرك (١٩ يوليو ١١٩٥م)، ثم لم يلبثوا أن انهزموا فى معركة العقاب (لاس نافاس دى تولوز - ١٧ يوليو ١٢١٢م)، وتعتبر هذه السنة نهاية حكمهم الفعلى فى الأندلس.

وفى خلال الصراع بين المرابطين والموحدين، سقطت عدة مدن إسلامية فى أيدى النصارى، منها: طرطوشة (١١٤٨)، ولاردة (١١٤٩)، وقلعة رباح (كالاترافا) (١١٥٧)، والمنطقة التى تعرف حاليًا بالبرتغال (١١٥٧ - ١١٧٧) ثم جيان (١٢٣٢) وفى عام ١٢٣٦ سقطت قرطبة عاصمة الأندلس كله، ثم

بلنسية (١٢٣٨)، ثم مـرسية، فكل شرق الأندس حـتى مالقة (١٢٤١)، ثم سقطت أشبيلية (١٢٤٨)، وتبعتها شذونة، وأركش وقادش!!

وفى وسط هذه المحن القاسـية المتتاليـة، قاوم الفقهـاء والمجاهدون هذا السيل النصرانى - تمامًا كما فعل زمـلاؤهم فى المشرق أمام ضربات الصليبيين فى البلاد المقدسة. فاستشهدوا فى سبيل الله. وكان منهم: أبو على الصدفى، وأبو الربيع سليـمان بـن سالم وكـانت سنه قد تـخطت السبـعين، وظل فى المعركة يجاهد حتى أكلته السـيوف، ومنهم محمد بن يوسف بن هود، البطل المقدام الذى قطع الأندلس من بلنسية إلى ماردة والسيف فى يده حتى استشهد فى قفار المنشا على مقربة من حصن صغير، كان يعرف بالبسيط[١].

يذكـر حسين مـؤنس فى «رحلة الأندلس» أنه فى وسط هذا الطوفـان، استطاع فارس عربى أندلسى هو محمـد بن الأحمر أن يعتصم فى غرناطة وما حولهـا حتى وادى آش فى الغرب، ومالقـة فى الشرق، ثم أنشأ إمارة عـربية تجمعت فيها جماعات من المهاجرين المسلمين من البلاد التى سقطت، وحصن هذه النواحى تحصـينًا منيعًا، واستـطاع أن يصمد لهجـمات الممالك المسحـية ابتداء مـن عام ١٢٣١[٢]. وفى هذا القطاع الجنوبى الصـغير صـمدت مملكة غرناطة الإسلامية قرنين ونصف قرن حتى قضى عليها فى ٢ يناير ١٤٩٢م.

هكذا أفل نجم الفتح العربى فى الأندلس بعد ثمانمائة سنة. ففى أعقاب الفتح العربـى الأول وأبطاله موسى بن نصير، وطارق بن زياد، وعـبد العزيز بن موسى، كانت سيادة العرب قد شملت شبه الجزيرة كلها (إسبانيا والبرتغال

(١) د. حسين مؤنس: ص ٢٣١.

(٢) هناك رأى يقول بعد وفاة ابن هود (١٢٣٨م).

اليوم)، وفى عصرى الإمـارة والخلافة، كانت الحدود الشمـالية تصل إلى نهر دويرة، ثم تتصل مع حوض نهر إبرو. . وفـى عصر ملوك الطوائف انحدرت إلى مجرى نهـر آنة. . وفى عصرى المرابطين والموحدين لم تتعـد الحدود نهر الوادى الكبيـر، فيما عـدا الناحية الشرقـية التى ظلت كاملة تقـريبًا فى أيدى المسلمين حتى عام ١١١٨ أى إلى سـقوط سرقسطة. وفى عصـر بنى الأحمر ملوك غرناطة انحصـر الأندلس جنوبى نهير من نهيرات الوادى الكبـير يسمى نهر شنيل، وعلى نهـير من نهيـرات هذا الأخير يسمى حـدارة (دارو) قامت غرنـاطة ودخلت فى الأندلس الإسلامى الجـزائر المتوسطة فى غـربه المعـروفة بالبيار، وقـد خرجت هذه الجزر عن الأندلس بعد سقـوط بلنسية سنة ١٢٣٨ فى أيدى ملوك أراغون واحدة بعد أخرى. .

ثم ضاع الأندلس واستردته إسبانيا المسيحية (١٤٩٢).

* * *